

إصلاح اختبار مادة العربية شعبة الآداب دورة المراقبة : جوان 1994

الموضوع الثالث : تحليل نص للجاحظ

تمهيد

يقوم الاختبار على تحليل نص للجاحظ، والجاحظ هو أبو عثمان عمرو بن بحر، وقد وُلد بالبصرة سنة 150 هـ هو في زمان الدولة العباسية. تتلمذ على علماء البصرة والكوفة والتقى الشعراء والخطباء واطلع على أعمال الفلاسفة والمتكلمين. ولما بلغ الخمسين من عمره استقر ببغداد وتفرغ للتدريس فكثر طلابه وذاع صيته. وقد أصابه في أخريات حياته بداء الفالج الذي لازمه حتى موته سنة 255 هـ.

كان الجاحظ غزير الإنتاج إذ بلغت مؤلفاته أكثر من ثلاث مائة فوِّد أكثرها ولم يصلنا منها إلا القليل أشهرها :

- كتاب "البخلاء"
- رسالة "التربيع والتدوير"
- كتاب "البيان والتبيين"
- كتاب "الحيوان"

والنص الذي ستعالجه ورد في كتاب "الحيوان" (ص ص 115-116- الجزء الثاني - تحقيق عبد السلام هارون)، وجاء بعد نصّ خصّسه الجاحظ للحديث عن طبائع الحيوان وطرأقه في كسب رزقه وفي تناسله وتعامله مع نسله لتكون هذه الكائنات عبرة للإنسان يتدبّر بها ويتعلّمها ويستخلص منها حكمة الخالق في ما خلق.

النص

إنّ الله عزّ وجلّ لم يُردّد في كتابه ذكرَ الاعتبار، والحثّ على التفكير، والترغيبَ في النظر وفي التثبت والتعرّف والتوقّف، إلا وهو يُريد أن تكونوا علماء من تلك الجهة، حكما من هذه التبعة (1). ولولا استعمال المعرفة لما كان للمعرفة معنى، كما أنّه لو لا الاستدلال بالأدلة لما كان لوضع الدلالة معنى، ولولا تمييز المضارّ من المنافع، والرديء من الجيّد بالعيون المجعولة لذلك، لما جعل الله عزّ وجلّ العيون المُدرّكة. والإنسان الحساس إذا كانت الأمور المُميّزة عنده (2)، أخذ ما يُحتاج إليه وترك ما يُستغنى عنه وما يضرُّ أخذه، فيأخذ ما يُحبُّ ويَدعُ ما يكره، ويشكر على المحبوب ويصبر على المكروه، حتى يذكرَ بالمكروه كيفية العقاب ويذكرَ بالمحبوب كيفية الثواب، ويكون ما يغمّه رادعا له، وممتحنا بالصبر عليه، وما يسرّه باسِطا له وممتحنا بالشكر عليه، وللعقل في خلال ذلك مجال، وللرأي تقلب، وتنشقّ للخواطر أسباب، ويتهيأ لصواب الرّأي أبواب، ولتكون المعارف الحسية والوجدانات الغريزية، وتمييزُ الأمور بها، إلى (3) ما يميّز عند العقول وتحصره المقاييس، وليكون عملُ الدنيا سلما إلى عمل الآخرة، وليترقى من معرفة الحواس إلى معرفة العقول، ومن معرفة الروية (4) من غاية إلى غاية، حتى لا يرضى من العلم والعمل إلا بما أداه إلى الثواب الدائم، ونجّاه من العقاب الأليم.

الجاحظ : كتاب الحيوان

تحقيق ع. هارون ج 2 ص ص 115-116

الشرح :

- (1) التَّعبئة : الإعداد
- (2) إذا كانت الأمور المميّزة عنده : أي كان يدركها وواعيا بها.
- (3) إلى ما يتمييز عند العقول : يقصد صائرة إلى...
- (4) معرفة الروية : المعرفة المتروية المتأنية.

حل النص تحليلا مسترسلا مستعينا بالأسئلة التالية :

- ابحث في مختلف الأساليب الحجاجية التي استعملها الجاحظ في النصّ للإقناع بوجهة نظره.
- ادرس مراتب المعرفة التي ورد أكرها في النصّ وبيّن دورها في الارتقاء بفكر الإنسان وسلوكه.
- كيف وصل الجاحظ بين العقل والعقيدة في النصّ ؟
- استخلص من النصّ بعض الأصول الاعتزالية التي اعتمدها الجاحظ وبيّن مقاصده من ذلك.

فهم النص

فكرة النص

نص للجاحظ يجمع بين النقل والعقل يدعو فيه الجاحظ إلى تدبر الكون تدبرا عقليا وفق دعوة القرآن إلى ذلك، راسما الغاية من هذا التدبر، وهو تضاعف الإيمان عند المتدبر وحسن اختيار السلوك والفوز بالآخرة.

أقسام النص

ينقسم النص إلى وحدتين متفاوتتين في الطول :

1. المسلمة الدينية : دعوة القرآن إلى التفكير ليرتقي الإنسان إلى مصاف الحكماء.
2. تحليل الجاحظ هذه المسلمة حتى تتلاءم مع المعرفة الإنسانية ببيان النتائج السلوكية المترتبة على التفكير، والنتائج الأخروية التي تفضي إليها المعرفة و يقود إليها الاعتبار.

بناء الجواهر

1. الوحدة الأولى : المسلمة النقلية

* أثبت الجاحظ بجملة اسمية مؤكدة "إن الله" وجملة حصرية "لم يردد...إلا..." أن مصدر الدعوة إلى المعرفة والتفكير هو الله في كتابه العزيز، وهو مصدر لا يقبل الجدل وإنما يقبل التأكيد وشد الأزر.

* كما أثبت أن حث الله للإنسان على النظر العقلي وعلى التثبت من الظواهر الطبيعية وعلى التعرف إلى خصائص كل كائن من الكائنات، وإلى التريث في إطلاق الأحكام عليها، إنما هو ارتقاء بالإنسان إلى مصاف العلماء والحكماء الذين لا يستوون والذين لا يعلمون وهو معنى الترغيب في النظر والتثبت والتعرف والتوقف (وكل هذه المصادر تحيل إلى معنى تدبر الأمور والتفكير فيها وفحصها بالعقل بأناة وروية).

* نستنتج من هذا أن الجاحظ يعتبر التفكير في الأمور ارتقاء روحيا وفكريا بالإنسان وتمييزا له عن سائر الكائنات في الكون بالآلة التي يمتلكها والهبة التي وهبت له وهي العقل.

2. الوحدة الثانية

- يسعى الجاحظ في الوحدة الثانية إلى الاستدلال العقلي على الطرح الديني في الوحدة الأولى.

- يمكن تقسيم هذه الحجج وفق الأساليب المستعملة :

- الافتراض (باعتقاد المركب الحرفي بالشرط "لو" وهو حرف امتناع لامتناع وقد تردد في بداية الوحدة 3 مرات متلاحقة :

- لولا استعمال المعرفة لما كان للمعرفة معنى.
- لولا الاستدلال بالأدلة لما كان لوضع الدلالة معنى.
- لولا تمييز المضار من المنافع. لما جعل الله....

أثبت الجاحظ بهذا الافتراض أفكارا متعددة تدور كلها في فلك العقل وهي :

* المعرفة تكتسب قيمتها وفعاليتها بالاستعمال والاستعمال للمعرفة يجر إلى تفحصها وتنقيتها من النقص.

* الاستدلال العقلي بفضل الأدلة المتنوعة هو الذي يجلي المفاهيم ويبلورها.

* الحواس هي الأداة الأولية التي بفضلها يميز المرء بين المتناقضات (الضار/النافع، الرديء/الجيد) وعلى الحواس تتبني المعارف العقلية.

← يورد الجاحظ بهذه الفرضيات مراتب في المعرفة الإنسانية تنطلق من الحس ثم ترتقي بالاستدلال العقلي. ومدار الحس والعقل هو العالم الذي يحيط بالإنسان بكل ما احتواه من كائنات.

- الشرط باعتماد المركب باسم الشرط (إذا) وجاء بناء هذا المركب كالتالي :

	(ب)	(i)
فنتهياً لصواب الرأي أبواب	↗ حتى يذكر بالمكروه كيفية العقاب.	الإنسان الحساس إذا كانت الأمور المميزة عنده أخذ ما يحتاج إليه وترك ما يستغني عنه.... مكروه
	↗ ويذكر بالمحسوب كيفية الثواب.	
	← ويكون ما يغمه رادعا له وممتحنا بالصبر عليه	
	← وما يسره باسطا له وممتحنا بالشكر عليه.	
	← ولتكون المعارف الحسية والوجدانات ... إلى ما يتميز عند العقول وتحصره المقاييس.	
	↗ وليكون عمل الدنيا سلما إلى عمل الآخرة.	
	↗ وليترقى من معرفة الحواس إلى معرفة العقول ومن معرفة الروية من غاية إلى غاية حتى لا يرضى من العلم والعمل إلا بما أداه إلى الثواب الدائم ونجاه من العقاب الأليم.	

* ووظيفة هذا الشرط هي إبراز النتائج المترتبة على ارتقاء الإنسان في مسالك المعرفة واكتسابه تمييزا وفهما لما يحيط به أي التمييز بين المتناقضات والأخذ بالنافع وإسقاط الضار هذه الوظيفة هي الغاية القريبة من الإنسان.

* فما هي الغاية البعيدة المؤسسة على الغاية القريبة ؟ (الأخذ بالنافع وإسقاط الضار) الغاية البعيدة هي التي وردت في مختلف المركبات المسبوقة بـ (حتى) أو بلام التعليل

في الوادي (ب) والتي مفادها أنه بضعها تتميز الأشياء وأن الغاية من تمييز الإنسان بين الأضداد بنيل الثواب والنجاة من العقاب.

* وتبعاً لهذا نستنتج ما يلي :

أولاً : أن الجاحظ يربط ربطاً ألياً بين المعرفي والسلوكي إذ المعرفة عنده سلم يرتقيه الإنسان (من الحس إلى العقل) ليفضي به من بعد إلى الممارسة والعمل.

ثانياً : أن الجاحظ يقول بحرية الإنسان في اختيار ما يراه صالحاً طالما كان هذا الإنسان متمتعاً بالعقل ولذلك يحمله مسؤولية أفعاله. (وهذا ما يعرف بمبدأ التكليف) والجاحظ في هذا يختلف مع الجبرية التي ترى الفعل البشري ينسب إلى الإنسان على المجاز لا على الحقيقة.

- إن الاختيار والتكليف يعدان عند الجاحظ دليلاً على العدل الإلهي.

ثالثاً : إن قول الجاحظ بمبدأ التكليف يرجع -من بين ما يرجع إليه- إلى المناخ السياسي المتحرر نسبياً، وهو ما يؤكد قوله : "أمكن القول وصلح الدهر وخوى نجم النقية".

- إن هذا يعني أن فكرة الجبرية كانت مرتبطة عند الجاحظ بعسف بعض الخلفاء وتتصلهم من المسؤولية.

رابعاً : حين يتحدث الجاحظ عن المتناقضات في الكون فليبين أنها صادرة عن إله واحد وأحد وهو مبدأ اعتزالي يعد من أهم ركائز هذا المذهب (مبدأ الوحدانية). والمعتزلة عموماً (والجاحظ خصوصاً) ترد بمبدأ الوحدانية على الثانوية والمانوية في اعتقادهم بتعدد الآلهة وفق تعدد الظواهر في الكون.

خامساً : ربط الجاحظ مفهوم الاختيار الإنساني بمفهوم الامتحان والبلوى : شكر الإنسان الله على النعم وصبره على المكروه والنوائب.

(الحيوان الضار نافع من جهة الامتحان لصبر الإنسان).

- فالاختلاف في الكون بين أقطاب مثل :

المحبوب # المكروه

ما يسر # ما يغم

النافع # الضار

- هو اختلاف في ظاهر الحس وانسجام وائتلاف في باطن العقل لا يستقيم الكون إلا بهما ولا يستقيم الاختيار إلا بفضلهما.

- فالاختلاف بين الظواهر دليل على حكمة الخالق في الكون وعلى دقة صنعه وعظمة المقصد من كل ذلك. فالتلمي في الكون يفضي بالمرء حتماً إلى إدراك فكرة الآخرة بوجهيها الثواب والعقاب.

- وفكرة الثواب والعقاب أو الجزاء عامة، بنى عليها المعتزلة فكرة أخرى هي فكرة الوعد والوعيد، فإله إن وعد أنجز وعده وإن توعد أنفذ وعيده. وبهذا المبدأ رد المتكلمون على المرجئة الذين جعلوا الثواب والعقاب مجهولين لا يدركان إلا يوم القيامة.

سادساً : يربط الجاحظ بين ما هو أخروي أي الثواب والعقاب وبين العقل باعتباره ملكة الفحص والتمييز، وهو في كل ذلك يربط بين المعرفة العقلية الراقية وبين المعرفة الحسية الأولية. فالمعرفة الحسية لازمة تربط بين الإنسان والكون إلا أنها ليست كافية لتصل بالإنسان إلى الغاية المنشودة.

- فالعلم بعظمة الخالق وحكمته ووعدته ووعيده تحت جميعا الحكيم على سلوك قويم ينشد فيه صلاح المعاش والمعاد وهي الغاية القصوى من أعمال العقل.
- ولقد استعمل الجاحظ لبسط رأيه معجما عقليا دل على أن محور البحث في الكون هو العقل (العقل/الرأي/الخواطر/الصواب/التمييز/المقاييس).

التأليف

1. انطلق النص نقليا ثم تم تأكيد النقل بالعقل ليعود في الخاتمة إلى النقل بالتعبير عن مطمح الفوز بالآخرة.
2. العقل عند الجاحظ وسيلة معرفية لبلوغ اليقين الديني والفوز بالنعيم الآخروي.
3. تتجلى قيمة النص في دلالاته على مرحلة تاريخية تميزت بالانتقال من عصر المشافهة إلى عصر التدوين (والكتابة تعني تأسيس الذاكرة وتثبيتها وإعادة بناء الوعي بالكون) ونشوء علم الكلام واحتياج المتكلمين إلى امتلاك المنطق العقلي للدفاع عن عقيدتهم الإسلامية ومبادئهم الاعتزالية ضد المناوئين.

المقدمة

- عامة : تحول المجتمع العربي من المشافهة إلى التدوين، من الشعر إلى النثر، من التسليم إلى التعقل.
- خاصة : الجاحظ في مؤلفاته نموذج لرجل العقل به يدافع عن عقيدته الإسلامية، وقد دافع في هذا النص عن ضرورة المعرفة الإنسانية بمحتويات هذا الكون حتى يتهيأ للإنسان العمل المثمر والعافية المحمودة.

الخاتمة

- قيمة آثار الجاحظ تتجلى : في التنوع من حيث المواضيع، وفي ثراء الحجج التي يدافع بها عن طرحه، وفي قدرته الفذة على المزج بين النقل والعقل.